التربية الصوفية عند الشيخ ماء العينين

أ.حسن عالي

كلية العلوم الاجتماعية

جامعة وهران

لا يمكن الحديث عن الشيخ ماء العينين ومنهجه التربوي، دون الوقوف لتسليط الضوء على ظاهرة التصوف التي ينتسب إليها الشيخ قلبا وقالبا.

ينسب الشيخ نفسه للحركة أو الجماعة الصوفية، والتصوف حركة عقائدية وأسلوب حياة دينية. يقول محمد أركون: "...وهو تيار فكري يمتلك معجمه اللغوي والتقني الخاص به، كما يمتلك خطابه المتميز ونظرياته المتفردة، وفي الوقت ذاته يتمتع هذا التيار بأسلوب حياة دينية يستخدم الشعائر والاحتفالات الفردية والجماعية من أجل أن يجعل الجسد والروح يتواكبان ويساهمان في عملية تجسيد الحقائق الروحانية"[1].

التصوف عقيدة ومنهجا نجد الكثير من الباحثين والأعلام تصدوا لتفكيك هذا المفهوم ووضعه تحت مجهر البحث أولا في التعريف به واشتقاقه وتطويعه انطلاقا من إيمانهم بقيمته وخصوصيته، إذ احتل التصوف في الخريطة العقائدية للإسلام المرتبة المنافسة والمزاحمة لما عرف تاريخيا بأهل الحديث والتيار السني.

عرف القاضي زكرياء الأنصاري (المتوفى 928هـ): "*التصوف علم به أحوال تزكية النفس وتصفية الأخلاق وتعميم الظاهر الباطن لنيل السعادة الأبدية*[2]" ويعرفه أحمد زروق "التصوف علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله تعالى عما سواه، والفقه لإصلاح العمل، وحفظ النظام وظهور الحكمة بالأحكام والأصول، وعلم التوحيد لتحقيق المقدمات بالبراهين، وتحلية الإيمان بالإيقان كالطب لحفظ الأبدان، وكالنحو لإصلاح اللسان إلى غير ذلك". قورن التصوف بحقول معرفية أخرى كالنحو والفقه والطب وعلم الحديث، ولا شك أن تعريف أحمد زروق ينطلق من رؤية صوفية خالصة ترى التصوف علما نافعا خلافا للمواقف المتشنجة والعدائية لأهل الحديث والسلفية الذين يكادوا يتفقون على رفض التصوف واعتبار أصحابه، أصحاب أحوال شاذة لا علاقة لها بالإسلام وبالعقيدة، نتذكر مواقف وتصريحات ابن تيمية، وابن الجوزي، وكتابات الألباني ومعاصريه.

يعرف أحد أرباب التصوف المغربي أحمد بن عجيبة الحسني، التصوف بقوله: "علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية الباطن من الرذائل".

تعريفات عامة إذا أخذنا بعين الاعتبار تعريف ابن عربي أحد أعلام التصوف وكبير المشايخ المربين، إذ عرف التصوف بتعريفين عام وخاص: "التصوف الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا وباطنا، وهي الأخلاق

الإلهية، وقد يقال بإيزاء إثبات المكارم للأخلاق وتجنب سفسافها لتجلي الصفات الإلهية وعندنا الاتصاف بأخلاق العبودية وهو الصحيح فإنه أتم"[3].

أما اشتقاقات التصوف فلا تكاد الدراسات تتفق على اشتقاق واضح، فقد تعددت الأقوال والمنطلقات، فمنهم من قال، اشتق اسم التصوف من الصوفة، لأن الصوفي مع الله تعالى كالصوفة المطروحة لاستسلامه لله تعالى، ورأي آخر "أنه من الصفة، إذ جملته اتصاف بالمحاسن وترك الأوصاف المذمومة، ورأي آخر من الصفاء، يقول أبو الفتح الستبي:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا ولست أمنح هذا الاسم غير فتى

ينفي القشيري تهمة لبس الصوف "إذا القوم لم يختصوا بلبس الصوف وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية، قياس ولا اشتقاق، وإلا ظهر فيه أنه كاللقب"، ومما يعطي هذا الرأي قيمة، أن أي أحد من المتصوفة لم ينكره، ولم يرده ولولا أنه يعبر عن الحقيقة ما سكتوا.

لم تتوقف الدراسات في إعطاء تصور موحد وتعريف واضح بعيدا عن لبس العبارة والمواقف العقائدية التي ترى أو تحكم على التصوف من منظار إيديولوجي لا يخدم مصلحتها وهدفها. ومع اختلاف حول نشأة التصوف تبقى التكهنات قائمة وتسير في منحى المواقف السياسية أو العقائدية، سيظل هذا العلم محط أنظار الباحثين، لكن المتفق عليه أن التصوف خلق تنوع وإثراء في الثقافة العربية والإسلامية، فأصول الطريقة تربوية تستمد أصولها من الطبيعة الحيوية للدين الإسلامي وتعتمد على علاقة الفرد بخالقه بعيدا عن توصيات الجماعة أو المذهب أو الارتكان لسلوك الفقهاء وتفاسيرهم وتأويلاتهم.

الفصل الأول:الشيخ ماء العينين

1) حياته / سيرته.
2) مؤلفاته.
3) نتاجه الفكري العام.

1 - الشيخ ماء العينين: حياته، سيرته.

الشيخ ماء العينين هو اسم علم انتسب إليه هذى الشيخ الفذ ولقب به واشتهر عند كافة أهل العلم والمعرفة في زمنه وخاصة أهالي الصحراء وموريتانيا وباقي بلاد المغرب. فهو من كبار الشيوخ البارزين الذين عرفتهم الصحراء في أواسط القرن الثالث عشر الهجري، وبالضبط في أوائل سنة 1270هـ وسارت بذكره الركبان، فطبقت شهرته الآفاق، فتألق اسمه في سماء العلم والمعرفة بين الناس كشيخ وعالم وفقيه ومحدث وأديب ومتصوف وقائد في ميدان الحرب.

يؤرخ المختار السوسي لهذه الفترة بقوله: "*المالعينين نسبة إلى الشيخ ماء العنينين، نزيل صحراء سوس، ومالئ تلك القفار بالمعارف، ناهيك ممن كان معه عشرة آلاف، لا هم لهم إلا الدراسة، ذكروا وإناثا، ثم لما نزل سوس يوم هاجر إلى تيزنيت ملأت كتبه خزائن سوس، وتلاميذه وتلميذاته كل أرجائه، وهي أسرة علمية، لا يطاولها في هذا المجد العلمي في كل شمال إفريقية إلا السنوسية في برقة (ليبيا)*"[4].

أجمعت كتب التاريخ والموسوعات الصوفية على علو همة وشأن الشيخ ماء العينين. واسمه الحقيقي مصطفى بن محمد فاضل المكنى بأبي عبد الله الشريف الحسني الإدريسي! فقيه مالكي أصولي التوجه "كان علامة مهيبا محترما سخيا جوادا كريما اشتهر في بلاد المغرب وكان مقربا من سلاطينها" وكان نافذ الكلمة في بلاد المغرب حتى وقعت الاضطرابات ولما اعتزم الفرنسيون احتلال شنقيط وصحراءها حرض الشيخ ماء العينين القبائل ضدهم، يدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله، أخذ عنه كثير من أعلام بلاد الصحراء منهم أبو عبيد الله العتيق الشنقيطي وأجاز جماعة منهم الشيخ المهدي الوزاني"[5].

2 - مؤلفاته:

ألف الشيخ ماء العينين في مختلف صنوف المعرفة والعلوم أثرت المكتبة والخزانة العربية، بمختلف الكتب نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، ما ألفه منها في علم التصوف:

- منتخب التصوف.
- مبشر التشوف، شرح كتاب منتخب التصوف.
- نعت البدايات وتصيف النهايات.
- منظومة اسمع ولا تغتر.
- إظهار الطريقة، شرح منظومة اسمع ولا تغتر
- إني مخاوي لجميع الطرق.
- مفيد الراوي على شرح إني مخاوي.
- المداوي والرد على من أنكر لغة مخاوي.
- قرة العينين في الكلام على الرؤية في الدارين.
- الكبريت الأحمر (مخطوط).
- أدب المريد في معنى لا إله إلا الله وكيفية التعبد بها.
- شرح قوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء).
- سهل المرتقى في الحث على التقى.
- نظم الحكم العطائية.
- المقاصد النورانية في ذكر ذاته وصفاته المتعالية.
- مظهر الهمة والأهم وما توصل إليه من المقصد الأعم.

- مفيد الموارد ومواريدهم.
- معاني أسماء الله الحسنى دون خواصها.
- معاني قوله تعالى: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة)[6].

توفي الشيخ ماء العينين بعد أن ترك ما يناهز الألف كتاب ومخطوط ونظم في الأدب والشعر والنحو وعلم الأسرار والتصوف وتفسير القرآن وأصول الفقه والفقه سنة 1910م ودفن بمدينة تزنيت حاضرة سوس العالمة.

3 - نتاجه الفكري العام:

يقول الشيخ ماء العينين: "... وكان التصوف (علم) من أفضلها (أي أفضل العلوم المعمول بها المنيرة)، وأجملها وأجلها، لأنه علم به صلاح القلوب، وبها تهذيبها من العيوب وبه انكشاف الحجب عنها لمشاهدة الغيوب..."[7].

آمن بأن الصوفية أوفر حظا في الاقتداء بأخلاق رسول الله (ص) وأحقهم بأحياء سنته والتخلق بأخلاقه، فالشيخ أحيا سنة رسول الله في بدايته، ووقف واعيا أقواله، وفي وسط حاله اقتدى بأعماله، فأتم له ذلك أن تحقق في نهايته بأخلاقه، وتحسين الأخلاق في المنظومة الصوفية لا يأتي إلا بعد تزكية النفس، وطريق التزكية بالإذعان لسياسة الشرع، وهذا ما أكده الشيخ في كتابه "نعت البدايات وتوصيف النهايات".

وتصوف الشيخ ماء العينين يغلب عليه الطابع العلمي الذي يميل أكثر إلى الزهد وتصوف الأخلاق والرقائق بعيدا في الغالب عن كل نزعة باطنية، فهو ليس إلا تتميما لتعاليم السنة، لا أثر فيه للشطح الصوفي، باستثناء حديثه عن الكرامات وخرق العادات واحتفاظه بقاعدة أن "ما جاز مقدورا لله تعالى جاز وقوعه كرامة للأولياء" ومرد اعتدال تصوف وحكم والشيخ ماء العينين نابع من انتسابه للفكر الصوفي المغربي الشنقيطي الذي تلقى أصوله من الرعيل الأول المشرقي من الصوفية السنيين الذين اعتنوا بما ظهر لسالف هذه الأمة من الكرامات ومهدوا القواعد التي كانت عليها أصول المقامات وفسروا ما غمض من إشاراتهم وكشفوا عما خفي من عباراتهم، ونقلوا ما صح من كراماتهم كالإمام أبي القاسم القشيري وأبي طالب المكي وأبا نجيب عبد القادر السهروردي.

ومن هنا يمكن اعتبار أن المؤلف نصب اهتمامه الفكري الصوفي على استكمال ونشر رسالة سابقيه الجنيد وأبي يزيد البسطامي وعلى الاهتمام كذلك بالدرس ونشر آراء مشايخ التصوف أو ما ساهم بالأرباب المتولهين في الزهد والذكر والرقائق والأسرار.

والواقف على ما جاء في كتاب "نعت البدايات وتوصيف النهايات" من مصطلحات وأفكار ومناهج جرت على ألسنة القوم وما طبع كتابه من الوقوف على أدبيات التربية الصوفية، قول دلالة على قوة تجربة الشيخ وخوضه غمار مدرسة متألهة وتجربة علمية، فقد أخذ التصوف فعلا وعملا، فنظر لمدرسة عرفت بطرحها بدائل لتصوف مميز، تميز عن سابقيه بممارسة الفعل الجهادي، يقول المؤرخ الصوفي عن فترة التميز هاته:

"وقد اجتمعت به.. ورأيت منه ما حيرني، لأنه أقدر من معه في وادي السمارة من الساقية الحمراء – الصحراء – بعشرة آلاف شخص، ما بين أرملة ومزمن، وصحيح البنية، وكل أصناف الناس وكل هؤلاء في أرغد عيش... ولما أراد الفرنسيون احتلال شنقيط وصحراءه، أرسل إليهم الشيخ يحضهم على الدفاع"[8].

بعد المتصوفة وأخذه لقسط الإرث من علومهم وجعلها قاعدة كتابه، نهل الشيخ كذلك من آراء الفقهاء وعلماء التفسير والشعراء، لكنه لم يترك بدا من العودة إلى والده الشيخ محمد فاضل صاحب كتاب "كشف الحجاب" الذي تأثر به إلى حد تخصيص جزء هام من مؤلفه "الديوان" لذكر كراماته والتطلع إلى أحواله الصوفية ومقاماته، فَلْنُرَجح مبلغ التأثير الكبير للشيخ بوالده واعتباره المدرسة الأولى والأخيرة التي تربى وترعرع فيها يقول ابن العتيق: *"تربى تحت ولاية أبينا شيخنا محمد فاضل بن مامين وهو قطب زمانه وفريد عصره وأوانه، له من الكرامات الرائقة والمناقب الفائقة والفضائل الكثيرة النيرة والعلوم الجمة الغزيرة والمفاخر التليدة والمآثر الشديدة، ما ينبو عنه لسان اليراع، وما ليس تعداده وحصره بمستطاع، وقرأ عليه جميع الفنون من التفسير وسائل علوم القرآن والحديث وسائر علومه، وعلوم الفقه والقواعد والأصول والنحو والتصريف وسائر علوم العربية وعلوم البيان والمنطق، وعلوم الطب إلى غير ذلك من سائر العلوم، فقرأ عليه من سائر الفنون في مدة يسيرة، وشاهد الناس فيه من الدراية وجودة الحفظ والجد في التعلم وكمال الضبط مالا يكاد يعبر عنه، وكان سامعا مطيعا لأمر والده، واقفا عند أمره ونهيه، وكان والده رضي الله عنه، يحبه حبا شديدا ويقربه عن جميع أولاده، ولا يفارقه ليلا ولا نهارا إلا في أوقات الضروريات، ولا يفتر عن تعليمه لما رآه فيه من الأهلية لذلك"*[9].

الحياة الفكرية للشيخ ماء العينين متنوعة، وشملت دراساته بعد التصوف كافة العلوم من تفسير وحديث وتوحيد وأصول فقه ونحو إلى غير ذلك، لكن ومهما تنوعت إبداعات الشيخ فإن الأثر الصوفي ظاهر في مؤلفاته وهذا ما ميز منهجه الفقهي والتفسيري، حضور التربية الصوفية.

ارتبط اسم ماء العينين بدعوته للجهاد وبإقامته لروابط متينة مع ملوك وسلاطين الدولة العلوية، فقد بدأت علاقته بالملوك العلويين سنة 1858م عندما استقبله السلطان عبد الرحمان في مدينة مكناس، ثم توطدت بابنه السلطان محمد الرابع ثم بلغت هذه العلاقة أوجهها في عهد السلطان مولاي الحسن الأول وفي عهد ابنيه عبد العزيز وعبد الحفيظ، لقد اعتبروه أكبر عالم جامع لشرائط الاجتهاد وفقيه عرفته المنطقة متعاملين معه كمرشد روحي وداعية لوحدة البلاد يعودون إليه في أمور مستعصية إما دينيا أو دينويا مما نال عندهم المكانة العالية.

من أكبر مظاهر التقدير والاحترام المراسيم الضخمة التي تخصص للشيخ عندما يفد إليهم حيث يتم الاحتفاء به عند بوابات المدينة مكان إقامة السلطان، يستقبل من طرف الوزراء ناهيك عن بقية كبار الدولة والقادة العسكريين مع ما يصاحب ذلك من طبول تقرع وأناشيد تعزف، وطوابير عسكرية أتت لمرافقته وحراسة وفد الشيخ، يقول ابن العتيق في وصف إحدى الزيارات: *"أمر السلطان وجوه الدولة وأعيان الرعية، وخواص العاصمة وعامتهم، وجميع العساكر بالتلقي على نحو ميلين من المدينة، ففعلوه له مع رفع البنود وضرب الطبول، وسائر أنواع الفرح"*[10]. وينقل الكتاني أحد مشاهداته بقوله: *"ولما أشرقت شمسه على مراكش بعد*

انتظار دام ثلاثة أشهر، لم يتخلف أحد من أهلها عن استقباله، وكان في طليعة الكل الوزير الأول وأمراء البيت العلوي الشريف، بحيث كان يوما مشهودا وموسما من مواسم الخيرات معدودا، أظهر فيه السلطان ووزراؤه وشعبه ما يكنونه من محبة وتقدير للشيخ ماء العينين"[11].

وما يؤكد حسن اللقاء والاستقبال والفرح قول صاحب المعسول العلامة المختار السوسي... وأما إذا توجه بركابه إلى مراكش فإن المغرب يقوم ويقعد في الاحتفالات به بإيعاز من الحكومة، وبغير إيعاز منها، فإن للرجل مكانة مكينة في القلوب كلها قلوب الخاصة والعامة، لدينه وعلمه وشرفه وسنه، حتى إذا أطل على الحمراء تركب الحكومة عن آخرها لملاقاته".

لا تقف العلاقة عند حدود المشاورة وإبداء الرأي بل تتعدد إلى حدود المساهمة في حل القضايا الشائكة والتدخل عند السلطان لإطلاق سراح مظلوم وتفعيل نقاش والمشاركة فيه بانتهاء الحكم أو الفصل فيه لصالح رأي الشيخ ماء العينين، فالشيخ بصفته الرسمية كعالم ومرشد روحي يتدخل في قضايا الخلاف حيث ينقسم العلماء ويختلفون في الرأي، نراه يتدخل لاحتواء الموقف حتى بلغت تدخلاته قضايا كبيرة من قبيل قضية تكفير الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني الذي صاغ وأبدع صلاة جديدة على النبي، سميت بالأنموذجية أنكرها عليه بعض من العلماء لما رأوا فيها من الحلول والاتحاد.

إلا أن دور الشيخ ماء العينين سيكبر أكثر عند تنبيه السلطان عبد العزيز لما يحاك بالمغرب من أطماع استعمارية، ودعوته لنهج خطة لمحاربة الفساد والظلم مما يدعم رأينا بأن الشيخ كان منافحا عن القضايا الوطنية وزعيما سياسيا إلى جانب كونه صوفيا وفقيها.

الفصل الثاني: التصوف عند الشيخ ماء العينين

1 –منهجه الصوفي:

اعتبر الشيخ ماء العينين أن أساس التربية الحرص على تعلم ونشر العلم بين الناس، وخاصة لأتباعه وساكنة المناطق المجاورة لمركز الشيخ ماء العينين، أو القبائل التي تنقل إليها بفعل دعوته وحركته التاريخية الجهادية التي امتدت من مكناس وفاس مرورا بمراكش شمالا إلا الجنوب والوسط وإلى أن بلغت تخوم بلاد شنقيط وغرب الجزائر.

أنشأ الشيخ ماء العينين مدارس واختار المدرسين الذين يتكلفون بمهام التعليم مع توفير المأكل والمشرب والملبس لطلاب العلم وخاصة الأطفال الذين توافدوا عليه من كل حدب وصوب ومن أخياف القبائل الصحراوية والسوسية والشنقيطية [12]يقول صاحب كتاب "سحر البيان" في هذا الصدد مثمنا ومتحدثا عن منهجه: "*وكان يرتب معلمين قادة حفاظا في حضرته الشريفة لتعليم أولاده الصغار، وسائر صغار حضرته، ومن أحب التعلم من سائر الناس والأغلب في المعلمين أن يكونوا من أقاربه أو تلامذته، وعند كل واحد منهم مدرسة كبيرة فيها بعض أولاده، وما انضم إليهم من سائر الناس، وهو رضي الله عنه القائم بشؤون تلك المدارس ومؤنها وما تحتاج إليه، وكان أولاده الصغار وسائر صغار حضرته يجتمعون كل يوم وليلة عند بيت كتبه – الخزانة أو قاعة الكتب – فيطعم الجميع غذاء أو عشاء، وكان يقدم عليهم واحدا من أبنائه الكبار ليرتبهم على تلك المطاعم ويتفقد أحوالهم*"[13].

وللمدارس التربوية العامرة مناهج تدريس... يبدأ الطفل في محطته الأولى بقراءة القرآن الكريم إتقانا وحفظا وتبدأ المحطة الثانية تعلم الإملاء ودراسة مبادئ اللغة العربية من نحو وصرف وشعر، لتأتي المحطة الثالثة يدرس الطفل التوحيد والفقه. علما أنه في الغالب أو في غالب أمر الأطفال تحولهم إلى مريدي الطريقة وتلامذة الشيخ ماء العينين منهم الكثيرين الذين بدأوا حياتهم بالتعلم في حضرته يقول محمد بن عبد الله التكروري وهو من معاصري الشيخ ماء العينين عن نظام التمدرس المعيني: ومما كان يفسر لمريديه نظم أبيه الشيخ محمد فاضل بن مامين، المسمى مطية المجد في التصوف، ونظمه المسمى ضوء الدهور في علم الحساب والفلك.

ومن ذلك نظمه الفريد في علم التصوف الذي سمي منتخب التصوف، وكان يفسره لهم بشرحه مبصر المتشوف. أما كتب المقلدين فأكثر اشتغال مريديه منها إنما هو مختصر خليل ابن إسحاق ورسالة ابن أبي زيد ونظم عبد الواحد ابن عاشر وتأليف الشيخ عبد الرحمان الأخضري بن مالك ويعلمهم مراقي السعود لسيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي في أصول الفقه، وأما كتب البيان، فالتلخيص لسعد التفتزاني ونحوه كعقود الجمان للحافظ السيوطي، وأما كتب قواعد الفقه فقد كانوا يقرأون النظم المسمى بالمنهج للعلامة علي بن القاسم (الزقاق)، ونظم العلامة محمد ميارة. وأما القرآن فكانوا يفسرونه بالجمل على ذي الجلالين ونحوه. وأما المنطق فكان يفسر لهم السلم للأخضري وتفاسيره... وأما كتب التوحيد فقد كانوا يشتغلون بنظمين له فيه" وفي خاتمة

كلام يقول ابن تكرور معلقا على المنهج الدراسي المعيني "هكذا كان اشتغال أهل حلقة شيخنا – يعني الشيخ ماء العينين – من أبنائه وقرابته ومريديه لا يفترون عن درس هذه الكتب التي قدمنا وغيرها ومطالعة ما لا يحصى كثرة من غيرها، وكان يفسر لهم ذلك كله"[14].

ويخصص الشيخ ماء العينين أوقاتا لتربية المريد، بل ويهتم بدقائق الأمور، ولقد بلغ من حرصه الشديد على الإحاطة بشأن تربية وتعليم المريد كان طفلا أو شابا في مقتبل العمر ما جاء عل لسان ابن العتيق صاحب كتاب سحر البيان الذي اعتمدنا عليه في إيراد حلقات المعرفة المعينية: "ثم يقوم فيأتي بيته الذي أعده لوضع الكتب وفيه ما ينيف على المائة من الصناديق المملوءة كتبا في كل فن، فتارة يكون خيمة، فتسمى خيمة الكتب، أو يكون دارا فتسمى دار الكتب، فإذا جلس في البيت اشتغل بأوراده ثم يشتغل بتعليم أولاده، ذكورا وإناثا. كما علم التلاميذ في المسجد، ثم يتذاكر مع أهل الرأي من أبنائه فيما يتوقف عليه الوقت من تدبير الأمور ويرفعون له ما في رؤوسهم فيرشدهم لما يفعلون مما اقتضاه الحال، ثم يشتغل بالتآليف فيؤلف ما شاء من نظم ونشر كأنه يملي ذلك من صدره"[15]

يتسابق تلامذة الشيخ للحصول على حظوة اللقاء أو الحضور لدرس ديني، يقبلون بكثافة منقسمين إلى طبقات: طبقة تتعلم القراءة والأخرى علوم الباطن وطبقات تتعلم فنون علم الظاهر إلى غير ذلك من العلوم التي حاول الشيخ غرسها في أبناء مدرسته الفكرية الصوفية التجديدية. نعود إلى ابن عتيق كمؤرخ للحركة المعينية وأحد مثقفيها وروادها عن هذه الفترة: "فيأخذ – أي الشيخ – في تعليمهم على اختلاف طبقاتهم، فمنهم من يتعلم الحديث والتفسير والأصول، ومنهم من يتعلم الفقه والقواعد والنحو والبيان والمنطق، ومنهم من يتعلم اللغة والعروض والشعر، ومنهم من يتعلم التصوف والحكم إلى غير ذلك من العلوم النافعة".

يوظف صاحب تأليف "نعت البدايات وتوصيف النهايات" القدرات العلمية والفكرية باعتبار شيخ الطريقة وعالم الأحكام والمجتهد ليتابع عن كثب تطور منتسبي الطريقة المعينية، متابعة أستاذ لتلامذته فلا يدع ساعة تمر دون استنفار همم (همة) الأطفال والتلاميذ للمطالعة والتعلم والمذاكرة، وبنفسه وعلى يديه يقدم الدروس ويلقيها على عامة الناس من زواره على أن مدرسة السمارة ظلت على امتداد نشاطها العلمي مزارا شريفا لأبناء القبائل الصحراوية والموريتانية.

دروس ومحاضرات سجلها الفقيه محمد العاقب بن مايابي وعلق عليها بقوله: "فإذا فرغ من صلاة العصر اتخذ مجلسا للحديث، فيدعو باثنين من تلامذته، ويلو أحدهما ما جاء في صحيح البخاري، فيقرأ صاحب النص أولا، ثم الشرح أو الحاشية، والناس منصتون حتى يتم الباب المقروء، ثم يملي معناه – أي الشيخ ماء العينين – على أهل حضرته ويفسر لهم".

يقول محمد العاقب كذلك عن فترة الشيخ ماء العينين: "كان شيخنا حفيا بالتلاميذ رفيقا بالمريدين يرحم الضعيف ويعظم الشريف، ويعلم مصالح الناس ويسوسهم على قدر طاقاتهم ويخاطبهم على قدر عقولهم، ويلين

لهم القول كما قال الله تعالى لنبيه عليه السلام" (فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر)[16]. وكان يربي مريديه بمقتضى الكتاب والسنة، فيأمرهم بذكر الله علانية وسرا ويحضهم على التعلم، ويزجرهم على التطواف في البيوت والاختلاط بالناس، وكان ينظر في حالة المربي، فإن كان ذا قلب متعلق بالله تعالى لا همة إلا إليه كان عونا له على مراه، وهاديا له إلى ربه، فيرتدعه على حاله حتى يصل إلى ربه في أسرع سلوكه".

ومما يؤكد تفاني الشيخ ماء العينين وحرصه وشدته على تعلمي وإرشاد أبناء طريقته والموالين له ما قاله واحتفظت به ذاكرة ابن العتيق، إذ يقول: "وكان من عادته إذا أتاه المريد أن يتركه مرة في المسجد، ولا يكلفه بخدمة تصرفه عنه، ويأمره بدوام الذكر والتعلم وحضور الصلاة معه، والمحافظة على مجالسته، حتى يسري له من إمداد، ما يصفو به باطنه، ويستقيم ظاهره، ويتخلق بأخلاقه الزكية، ويقتدي بسيرته المرضية، ثم يقدمه بعد ذلك بما يليق به من الخدمة التي ترقيه إلى مقام الوصلة".

يتبين لنا نم خلال هذه القراءة في كتب المؤرخين الذين واكبوا تطور المدرسة المعينية وشاركوا في بناء رؤيتها ومنهجها الصوفي ملاحظات عدة منها:

- الحضور القوي والفاعل للمذهب المالكي ويمكن إرجاع هذا الحضور لما عرف عن الشيخ ماء العينين من انتسابه فكريا وفقهيا لدائرة علماء الأصول الصوفية ودفاعه عن المذهب المالكي كمذهب وحدوي يركز على الأخلاق والتربية وكمذهب يقبله الصوفية.
- وقوف الشيخ ماء العينين ومراقبته المستمرة لسير الدراسة والمراقبة المستمرة.
- العلاقة بين التعلم والإطعام والملبس أي تعليم متكامل.
- إشراك الأبناء إلى جانب التلاميذ في مهام التدريس والمراقبة.
- التداخل في المنهج الدراسي بين ما هو فقهي ونحو وعلوم التصوف.
- رقة التشنج والإلمام بالشورى.
- غياب المناهج التقليدية المعمول بها في بعض الأوساط كالضرب والعقاب.
- الحضور القوي لكتب وشروحات الشيخ محمد الفاضل بن مامين، وبعض أقطاب المدارس المغربية والشنقيطية.

2 – رؤيته للتصوف: التجديد والإصلاح

الفقيه المجتهد رأى ضرورة التجديد وعدم الاقتصار على مذهب أو تعصب لرأي دون آخر، ورأى أن التشريع الإسلامي مصدر واحد ولا يمكن تقييد النظر أو حصره زمنيا ولا مكانيا، يقول الشيخ ماء العينين في كتابه "دليل الرفاق على شمس الاتفاق": "إن الشريعة الإسلامية جاءت عامة وليس مذهب أولى بها من مذهب"

ومن مظاهر التجديد عند الشيخ قوله: جعل الله أئمة المسلمين مجددين لأنهم ينظرون في صالح الأمة نظرة صلى الله عليه وسلم، ويفعلون بهم من سنته ما هو موافق كالهم في ذلك الزمن ولذلك من لم يعرف انتقال العرف كانتقال الزمن فهو العلم كالزمن ومن حكم في حكم جديد بعرف قديم فهو من العلماء كالعديم".

كما لم يعرف عن الشيخ ماء العينين انتسابه لأية طريقة صوفية بل نسب إلى والده عدم التقيد بأي طريقة معينة، كما ذكر أنه لم يشاهد أو يسمع مما يجعله يعزم بأنه يفضل طريقة من طرق الصوفية على أخرى: "حتى يكون ذلك ترجيحا لها على غيرها يمكنني أن أقلده فيه"[17].

الإصلاح في حكم الشيخ ماء العينين يتجلى في انفتاحه على كل المتون الصوفية الدعوة إلى الوحدة ومحاربة البدع والشطحات إلى جانب الانتقادات التي يوجهها لأدعياء التصوف. ومن مظالم التجديد الصوفي استحضار واستعمال الشعر والنظم كمواد شارحة لكتبه. فجاء شعره كترجمان لاهتماماته المذهبية والدينية وهمومه الذاتية وحبه العميق للبذل والجهاد والكرم والذكر. ومن مظاهر التجديد كذلك، رفضه للخنوع والقبول بالأمر الواقع والهزيمة أو التخاذل أمام القوى الاستعمارية بل جعل من طريقته مأوى لكل الرافضين للمحتل الأجنبي وفتاويه محرضة استهدفت القوى الرافضة للمقاومة والجهاد.

إن للشيخ ماء العينين المكانة البارزة في التصوف المغربي، فهو فقيه صوفي ونحوي مجد ومؤسس لطريقة جديدة حملت اسمه ولقن الطريقة وعنونها وشعارها – أني مخاوي لجميع الطرق - لعدد من الأعلام المشارقة والمغاربة، واشتهر بأذكاره وكتابات في مجالات التنظير الصوفي والتي للأسف تعج بها مكتبات عائلية تنتظر وقت الإفراج عنها، مخطوطات ثمينة لا تقدر بثمن وكتابات متنوعة في كل مجالات المعرفة تظل سجينة عقلية آمن أجدادها بتفعيل الكتاب المعيني ونشه لأكبر قرد من المهتمين والقراء.

الفصل الثالث:التربية عند الشيخ ماء العينين

1 –تربية المريد

2 –آداب المربي.

3 –أذكار المربي.

4 – آداب المربي مع مريديه.

5 – آداب الإخلاص والعدل.

يقول الشيخ ماء العينين:

من أشرف الخصال طلب الكمال، والكمال هو التخلي عن الأوصاف الذميمة والتحلي بالأوصاف الحميدة، فالأوصاف الذميمة هي: الجهل والغضب والحق والحسد والبخل والكبر والرياء وحب الجاه والتقاطع وتتبع عورات الناس وسوء الحلق ونحو ذلك. والأوصاف الحميدة هي: العلم والحلم والكرم وصفاء الباطن والرفق والصبر والتواضع والزهد والتوكل والحياد والرضى والإخلاص والصدق والشفقة والرحمة على الخلق، والحب في الله وسلامة الصدر والنصح والحضور والخشوع وحسن الخلق ونحو ذلك. والتحلي بهذه الأوصاف الحميدة والتخلي عما قبلها هي المراد من سلوك طريق التصوف.

"نعت البدايات وتوصيف النهايات"

"التصوف هو الاتصاف بالكمال والخلاص من قبيل الخصال وهذا شيء مطلوب مأمور به محبوب"

الشيخ ماء العينين

نعت البدايات وتوصيف النهايات

1 – تربيةالمريد:

يعرف الشيخ ماء العينين المريد بقوله: «ولتعلم أن المريد مشتق من الإرادة وهي لوعة في القلب يطلقونها ويريدون بها إرادة المتمني، وهي منة وإرادة للطبع ومتعلقها الحظ النفساني وإرادة الحق ومتعلقها الإخلاص. وهذه التي اشتق للمريد منها اسمه عنه عندهم لأنه المتجرد عن إرادته لما أراد الله منه وهو العبادة، قال الله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾. ويطلق عندهم على شخصين واحد من سلك الطريق بمكابدة ومشاق ولم تصرفه تلك المشاق من طريقه والآخر من تنفيذ إرادته الأشياء. وهذا هو المتحقق بالإرادة»[18].

والمريد من توصل إلى شيخ ناصح مرشد عالم بعيوب النفس إعراضها ودواعيها وأدوية أمراضها. مهمة إذن تهذيب المريد الخارج من الغفلة الراغب في اصطحاب شيخ رمز الزهد والتقى. فالعلاقة مشروطة:

خروج المريد من الغفلة، الارتباط بشيخ ناصح، والشيخ في العرف الصوفي هو المربي والمعلم والأستاذ يأخذ بيد المريد خوفا عليه من الانزلاق والارتماء في متاهات يحذر منها المتصفة: "لأن من لم يكن له شيخ يقوده إلى طريق الهدى قاده الشيطان لا محالة إلى طريق الردى".

الشيخ المريد الشيطان

القيادة

الهدى الردى

يعترض المريد في بدايته لمعوقات وحواجز منها، بعدد الطرق والمشاييخ، اختياره لشيخ وطريقة يبعثان فيه روح الارتياح والاطمئنان، ويخرجه من حالة التذبذب، إلا أنه غير مخير في اختيار الطريقة، فالشيخ وحده كفيل بتنميته وتوجيهه الوجهة الصحيحة أي "تعليمه الآداب الظاهرة والشرائط المتعلقة بأعمال التعبدات ممن أخذها بالسند المتصل إلى ا لنبي عليه السلام – الهادي والمرسل".

لو فرضنا للمريد اختيار الطريقة أي قواد التعبد بمعنى حريته في التعلق بورد وذكر مدرسة أو طريقة أو مذهب فإن الشيخ ماء العينين يحذر من حالة المريد المتذبذب، الذي يعيش في مفترق الطرق، الغير قادر على التخلص من حالة قد يفرضها عدو الصوفية الأول "الشيطان" "فإذا شرع في طريقته وتعلق بها زين له الشيطان أخذه وساعدته النفس وخيل بالبرهان أنها أفضل من هذه". ويستمر المريد في الانزلاق دون شعور، حتى يمل وتسكن حرارة طلبه، فيرجع القهقرى.

والحالة هاته، يبقى الحل الأنجع والأسلم، هو عيش الصوفي المريد تحت كنف شيخ مربي ناصح يمتلك القدرة التحكمية تجعل من "المريد محفوظا في أحواله بقوة ولاية المربي المستفاد من نور الحضرة النبوية" ينصحه ويصارع فيه أهواء الطيش.

2 –آداب المربي:

المربي الشيخ والأستاذ، يحيلنا الشيخ ماء العينين على كتاب "رسالة قوانين حكم الإشراق إلى الصوفية بجميع الآفاق"، كتاب جمع فيه المؤلف التعاريف المتعددة والمتنوعة لمفهوم المربي - وإن كان الشيخ ماء العينين لا يفرق بين المربي والشيخ والأستاذ – قال المالكي: "المربي من انكشف له طرق النجاة فسلك عليها، المربي خلقه واسع، وعلمه نافع، المربي محظوظ بحسب الشارة وعلم الإشارة". وعند الإمام القاشاني: الشيخ هو "الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة البالغ إلى حد التكميل".وإن كان شيوخ التصوف من يلجؤوا إلى التفريق بين الشيخ والمربي والأستاذ إلا أن الشيخ ماء العينين حض الأستاذ بأرفع المقامات فقال: "الأستاذ أكمل من الشيخ في الأحوال وأعلى منه بالمعارف والأقوال.

3 –أذكار المربي:

لا يستثني الشيخ ماء العينين المربي من برنامجه التربوي المخصص للأذكار وأنواعه والنماذج الصالحة للمربي، برنامج على غرار ما قدمه للمريد، فالذكر بالنسبة للشيخ العارف كالتوبة للمستأنف، وأول ما يليق بالمربي في بدايته الأولى، الذكر باسمه تعالى "يا حق" عرف الشيخ ماء العينين الحق بقوله: "انه المتحقق الثابت وجوده أزلا وأبدا فلا يقبل الانتقاد بحال، فمعناه يستلزم القدم ولبقاء". أما الذكر الثاني اسم الجلالة "القيوم": "القائم المقيم لغيره، وقيل: الدام الباقي فيكون تأكيدا للحي" يطلب من المريد الدوام والإكثار منه حتى يصل إلى مقام الكمال الأكمل والجلال الأجمل لأنه مقام القبطانية الكبرى.

واسم الجلالة القهار ذكر ثالث ومرجع اختيار العلامة ماء العينين للقهار ليكون من الأذكار المخصصة للمربي لأنه كما يقول المؤلف:"لما شاهد أن القيوم هو الذي يحصل به شهود أن ربنا قيوم على كل شيء يحفظه ويرزقه ينبغي له أن يشاهد مع ذلك أنه القهار لأنه القهار مبالغة في القهر، ومن قهره جمعه بين الطبائع المتنافرة وإسكان الروح اللطيف النوراني في البدن".

4 – أدب المربي مع مريديه:

- لين الجانب، رقيق القلب "المعاملة بالرفق والتلطف بهم" يقول الشيخ ماء العينين اللين في القول، أنفذ في القلوب وأسرع إلى الإجابة وأدعى إلى الطاعة". هكذا يوصي الشيخ المشاييخ والمربين باعتماد سياسة مرنة تؤتي العطاء وتجنب العلاقة الصدامية أو سوء الفهم مما ينتج عنه علاقة متوترة تلميذ ومريد متخاذل مدعي يجلب الخسارة للجماعة الصوفية، "المواريد ثلاثة، مريد مع الشيخ بجسمه وقلبه وهو أفضلهم، ومريد معه بقلبه وهو على أثره، ومريد معه بجسمه فقط فاحذر أن تكونه والأفضل للمريد بعده بجسمه وقربه بقلبه من العكس".

تربية خالصة وصادقة، هكذا ينبغي على علماء الآخرة وهو الوصف المحبوب لدى المتصوفة والوارثون والمشاييخ فإن الناس كما يقول الشيخ ماء العينين: "فإن الناس على دين متبوعهم في الظاهر والباطن".

لنفترض أن الشيخ المربي مدعي متخلق بأخلاق السوء واللامبالاة، تصاب الجماعة بالضعف والوهن وتعالي النصب والاحتيال، أخلاق حذر منها الشيخ ماء العينين فعلى الشيخ التمسك بالشريعة والتحقق بآداب الحقيقة.

- المجالسة والرفق بهم والحث على الطاعات "يبين لهم أسنى الطرقات" كما لما يطرد فقيه هم لأجل من سواهم لشيء من الرغبات". فالجماعة الصوفية تضم الأغنياء والفقراء بل الرؤساء والملوك، مجلسهم واحد وحلقتهم متحدة لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، يتحلقون في مجلس واحد.

5 - آداب الإخلاص والعدل:

الإخلاص أول منزلة تربوية صوفية، عرفه الشيخ ماء العينين: فعله القلب وهو أن يأتي بالفعل لوجه الله تعالى مخلصا له ولا يريد بذلك رياء ولا سمعة ولا غرضا آخر، متى قالوا في ذلك لا يجعل العبد عبادته بمحض العبودية واعترافا لربه عز وجل بالربوبية. العدل يأتي في المرتبة الثانية، بعد أدب الإخلاص لكون المتصوفة مذهبهم التوسط والاعتدال يقول الجرجاني: "العدل مصدر بمعنى العدالة وهو الاعتدال والاستقامة وهو الميل إلى الحق" ويقول ابن مسكويه: "إن العدالة لقب للتمسك بالشريعة" وذكر ابن مسكويه أن أفلاطون قال: إن العدالة إذا حصلت للإنسان أشرق بها كل واحد من أجزاء النفس، وذلك لحصول فضائلها، أجمع فيها حينئذ تنهض النفس فتؤدي فعلها الخاص بها على أفضل ما يكون وهو غاية قرب الإنسان السعيد من الإله تقدس اسمه".

ينبه الشيخ ماء العينين إلى إلزام المربي بحفظ الآداب النبوية وتطبيقها لما لها من وقع في نفسية المريد، يمكنه من كسب فضيلة الإيمان والتمسك بسنة النبي (ص) لأن التمسك وقوة الإيمان شرف للمربي، فالأدب عند المؤلف: "أكرم الجواهر طبيعة وأنفسها قيمة، يرفع الأحساب الوضيعة ويفيد الرغائب الجليلة ويعز بها عشيرة ويكثر الأنصار لغير رزية".

يعتبر السؤدد من الآداب العلية والمقصود به المروءة والمروءة ظاهرة وباطنة، الأولى الرئاسة والثانية العفاف، ولأن المربي له الرئاسة العظمى عليه بالمروءة لكسب الأتباع والحفاظ على هبة سلطته الروحية.

أما الأقوال والأفعال الجالبة للخير المجربة عند الأولياء أي أولياء الصوفية وأول الأقوال والأفعال الذكر، والذكر إما "بالمطلق أو المقيد" وأفضل الذكر عند الشيخ ماء العينين – الواجب على المربي أخذه وتعلمه - "ما به يمحو الأوزار ثم ما يحفظ من طوارق الليل والنهار ثم ما به طلوع الدرجات بالأنوار وأفضل من ذلك كله ما به الفناء في شهود الله عن الأغيار وكما كان الكمل من الأولياء لا يصفون بالكمال إلا بعد هذا الشهود، كان المراد هنا من الأذكار كذلك ما فيه جوامع الكلم بكثرة الأجرة لتكون الكلمة الواحدة تعدل كذا وكذا لأن الكمل مستغرقون في الشهود أناءالليل وأطراف النهار، ومع ذلك مخاطبون بما يكون به صلح الظاهر والباطن".

يحظى الذكر كأدب يدشن الشيخ ماء العينين صفحة جديدة للمربي، بعد تأدية واعتناقه المبادئ العامة للتصوف تأتي درجة التخصص:

الذكر: تخصص المريد:

يفرض التخصص على المربي والمريد الانتقال من التجربة العادية إلى درجة العارف المتوله يجمع بين تربية المريد وتربية نفسه وتزكيتها، هذا هو هم الصوفي وعمله.. المسيرة السير قدما دون انقطاع أو كلل أو ملل، يتحمل الأعباء والمشاق لأجل الهدف علىالحصول على درجة العارف ودرجة العارف يتسابق لها الكمل، يتشوق لها المشاييخ وحلم المريدين: "العارف هو ورد البحر دون العيون، وإن شاء أبرز حقائق المعارف والفنون، وأنشدوا:

وكل معنى يكاد الميت يفهمه حسنا ويعبده القرطاس والقلم

خاتمة:

حياة ا لشيخ ماء العينين طغى عليها الجانب الجهادي السياسي ومع موضوعنا وقفنا على جانب مهم من تفكيره، الشيخ المعلم الصوفي المربي، لقد وضع اللبنات الأولى لتربية صوفية هدف من خلالها تربية جيل يؤمن بقيم الإسلام وسمحاته ويتميز بصفات حددها الشيخ في كتبه ومنشوراته ونظمه فأعطت نموذجا رائع لمدرسة تحملت مسؤولية المشاركة في وحدة البلاد والحفاظ على مقوماته الدينية والاجتماعية.

إذن وقفنا مع الشيخ ماء العينين وقد تبين لنا أن:

- ✓ فكره يتسم بالتسامح والانفتاح والدعوة للإخاء.
- ✓ ينطلق من بيئة صحراوية مشاركة في دائرة صوفية مغربية كبرى.
- ✓ الاجتهاد وانطلاقا من المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية.
- ✓ التربية الصوفية مرتبطة بواقع المعاش.
- ✓ تربية تعتمد على القيم الروحية والاعتدال بعيدا عن الشطح والغلو.
- ✓ التربية السليمة وإشراك الفرد دون دعوة الاعتزال والتقشف.

التربية الصوفية عند الشيخ ماء العينين انطلقت من تصور إسلامي خالص ومن واقع داخلي أتاحته واعتملت في دراجاته وإشكاله الأحوال والتقلبات الاجتماعية- التاريخية (الاستعمار) وبذلك كانت تربية تقف عند حدود الشرع وتدعو للاجتهاد، بند التقليد والابتداع أنها تجربة ولدت ثقافة رائعة، ثقافة تربية الإنسان مهما كانت طبيعته، فعالم الصوفي عالم متميز متنوع يشكل مادة خصبة للدراسة والتحليل والوقوف عند الجوانب المضيئة من هذا الصرح الوطني الكبير، فعلى الرغم من مكانة التصوف في قلوب المغاربة فإن التساؤلات تبقى واردة عن قدرة التصوف وقدرة التربية الصوفية على فهم الواقع ومسايرته، لهذا فهي ما زالت تملك تأثيرا يخلق لدينا الانفعال الوجداني والمتعة الجمالية الفنية...

المصادر والمراجع

المصادر:

1 – الشيخ ماء العينين : نعت البدايات وتوصيف النهايات، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت. بدون تاريخ.

2 – الشيخ ماء العينين : راتق العتق عن فاتق الرتق. دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.

3 - الشيخ النعمة: مسموعاته، الفواكه، مخطوط.

4 – الشيخ ماء العينين: ا لإيضاح لبعض الاصطلاح.

5 – الشيخ ماء العينين: منتخب التصوف لكل ذي جهل وذي تعرف. مخطوط.

6 – الشيخ ماء العينين: دليل الرفاق على شمس الاتفاق: طبع باتفاق بين وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ووزارة الأوقاف الإماراتية، طبعة 1996.

7 – ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت 1981.

9 – أبو العباس الغريني: الدراية، تحقيق علال النويهض.

10 – الجرجاني: التعريفات، الدار التونسية للنشر. 1975.

11 – الشنقيطي، محمد الأمين:الوسيط في تراجم شنقيط. الطبعة الثانية، 1974 بيروت.ج: 3

12 – ابن العتيق: سحر البيان في شمائل شيخنا الحسان، مخطوط.

13 – التكروت، محمد بن عبد الله، رسالة في ترجمة الشيخ ماء العينين، مخطوط.

14 – القشيري: الرسالة.

15 – المختار السوسي: كتاب المعسول، مطبعة النجاح، 1960 الدار البيضاء.

16 – الإمام الطوسي: كتاب اللمع، تحقق عبد الحكيم محمود طه سرور، ط: 1960.

17 – كما الدين القاشاني: (عبد الرزاق): اصطلاحات الصوفية، تحقيق وتعليق عماد إبراهيم.

18 – ابن البنا فتح الله: تحفة أهل الأذواق.

المراجع:

- المراغي، عبد الله مصطفى: الفتح المبين في طبقات الأصوليين، الطبعة الثانية، 1958.

- محمد الغربي: الساقية الحمراء، مطبعة الرسالة، الرباط 1985.
- محمد أركون : الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد، ترجمة هاشم صالح. دار الساقي، بيروت، 1998.